ألفرد بل وتحقيق التراث التاريخي الجزائري:

كتاب بغية الرواد أنموذجا.*

قامت مدارس الإستشراق الغربية على اختلاف جنسياتها بأدوار هامة في خدمة التراث العربي المخطوط، سواء بجرد ذلك التراث في مختلف المكتبات العالمية والتعريف بـــه، أوالعمـــل على تحقيقه ونشره، ولولا هذه الجهود لكنا قد فقدنا إلى الأبد جـــزءا هامـــة مـــن نفـــائس المخطوطات العربية التي تم السطوعليها وتهريبها خارج البلاد العربية.

ولقد انتبه هؤلاء المستشرقين إلى أهمية إخراج النصوص العربية المخطوطة في وقت كانت البلاد العربية في غالبها تحت السيطرة الأوربية، ولم تكن الدراسات التاريخية العربية قد عرفت ذلك التطور الذي عرفته المدارس الغربية سواء في المناهج أوالتقنيات المستعملة أوحتى المواضيع المطروقة. لذلك كسبت تلك المدارس قصب السبق في هذا الميدان.

ومن بين المدارس الغربية التي لها باع في تحقيق التراث العربي المخطوط، المدرسة الفرنسية، وذلك بحكم أن فرنسا كانت تحتل عددا من البلاد العربية، لا سيما في شمال إفريقيا، فاهتم عدد من مؤرخيها وعلمائها بتحقيق عدد من النصوص الهامة، ومن بين هؤلاء المستعرب ألفرد بل.

ولد ألفر بل بسالان جورا سنة 1873، درس بثانوية بيزانسون، وحصل على شهادة البكالوريا، شعبة علوم سنة 1890. وعمل مدرسا بالبليدة سنة 1891، وبثانوية وهران سنة 1892، ثم أصبح مديرا لمدرسة تلمسان، وبعد ذلك محافظا لمتحف الجزائر بين سنتي 1901-1928.

توفي ألفرد بل بمدينة مكناس المغربية سنة 1945 بعد مشوار حافل في مجالي التدريس والتأليف، ولقد ترك عددا من المنشورات، لعل من أبرزها:

- القضاء الإسلامي في الجزائر، سنة 1927.
- بني سنوس ومساجدهم، سنة 1922، ترجمه الدكتور محمد المأمون حمداوي إلى العربية.
- الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمه إلى العربيـــة عبـــد الرحمان بدوي[1].

*د. عبيد بوداود، أستاذ بقسم التاريخ- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة معسكر.

كما له عدد من المقالات نشرت إما في النشرة الأثرية، أوالمجلة الإفريقية، نذكر منها ما يلي:

مذكرة حول كتابة عثر عليها سنة 1846 منقوشة عل جسر النقرية بتلمسان[2].

الإسلام الصوفي: الجمعيات الدينية، الأولياء[3].

وثائق حديثة حول تاريخ الموحدين[4].

نقش على ضريح تلمساني يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي[5].

ملاحظات ووثائق تخص احتفالات المولد النبوي بمنطقة المغرب الإسلامي[6].

بعض الآثار الخزفية وجدت مؤخرا في تلمسان، نشر بالنشرة الأثرية سنة 1911.

ملاحظة حول كتابة لهم الأوقاف بمتحف تلمسان، النشرة الأثرية، 1910.

مذكرة عن ثلاث مزهريات قديمة من النحاس المنقوش عثر عليها بفاس، تستخدم لقياس زكاة الفطر.

إن هذه العناوين ما هي إلا عينات مما كتبه ألفرد بل، ولا تعتبر إحصاء دقيقا لكل ما خلفه، ونلاحظ أن اهتماماته كانت منصبة على نشر النصوص والوثائق مهما كانت طبيعتها، وهوما يشكل أهمية بالغة في الكتابة التاريخية فيما بعد.

لكن العمل الذي ننوه به في هذا المقام هوتحقيقه لكتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد لأبي زكرياء يحيى بن خلدون في مجلدين، وطبع لأول مرة بمطبعة فونطانة بالجزائر سنة 1910. إن هذا الكتاب لم يعد متوفرا إلا في بعض المكتبات العمومية وبنسخ محدودة، ومع الأسف لم أتمكن من الحصول على المجلد الأول، ولم أسع إليه قبل ذلك لأن هذا الجزء حققه الدكتور عبد الحميد حاجيات وطبع سنة 1980، وأصبح متوفرا في الأسواق والمكتبات، مما فوت الفرصة عليّ للاطلاع على مقدمة المحقق، والتي على ضوئها يمكن التعرف على المنهج المتبع في التحقيق، والنسخ المخطوطة المستعملة، وغير ذلك، لكن الدكتور حاجيات عبد الحميد عاد إلى كل هذه الأمور في مقدمة تحقيقه للجزء الأول، مما أسدى خدمة جليلة على هذه المداخلة، كما أنني أتوفر على المجلد الثاني من كتاب بغية الرواد تحقيق ألفرد بل، والذي سعيت إلى الحصول عليه للإلمام بكتاب كاملا. كما نشير أن الأستاذ بوزيان الدراجي أخبرنا أنه حقق الجزء الثاني من هذا الكتاب لكننا لم نتوصل بنسخة منه.

وعلى ضوء ما هومتوفر لديّ من الجزء الأول لكتاب بغية الرواد تحقيق عبد الحميد حاجيات، والمجلد الثاني تحقيق ألفرد بل، نحاول الوقوف عند جهود ألفرد بل في تحقيق هذا الكتاب النفيس.

استعمل ألفرد بل في تحقيق الكتاب خمس نسخ أشار إليها في مقدمة المجلد الأول، وهي: نسخة المكتبة الوطنية بالجزائر، التي تحمل رقم 1619(الرقم القديم 862)، ونسخة الباشعدل شعيب بن طالب، وتوجد ضمن مجموع يشتمل على 151 ورقة، وتقع في 63 ورقة، ونسخة القاضي شعيب بتلمسان، وتحتوي على الجزء الأول فقط، ونسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم 5031 (القسم العربي)، ونسخة الباشعدل محمد بن أحمد الحصار التلمساني[7].

وعلى الرغم من تعدد هذه النسخ إلا أنها تحمل العديد من العيوب أشار إليها الدكتور عبد الحميد حاجيات مثل كثرة الأخطاء الواردة فيها، أونقص العديد من الأوراق، أوأن بعضها مبتور مما اضطره إلى استعمال نسخ أخرى لم يهتد إليها ألفرد بل، وعددها ست نسخ[8].

لقد حاول ألفرد بل استعمال عدد من النسخ لإخراج النص إخراجا صحيحا، في حدود ما توفر له آنذاك من نسخ، وقابل بين هذه النسخ، وأشار إلى الاختلافات فيما بينها في الهامش، وهذا هوالمنهج الغالب على مدارس الإستشراق في إخراج النصوص، فهي نادرا ما تتضمن ترجمة للأعلام البشرية والجغرافية، أوتعريفا بالمصطلحات المبهمة وغير المتداولة، أوتخريج الآيات والأحاديث النبوية، أوغير ذلك مما أصبح يستعمل اليوم في تحقيق النصوص التراثية.

كما أن ألفرد بل رغم معرفته للغة العربية إلا أنه لم يصبح ضليعا فيها، مما لم يمكنه من القراءة الجيدة للمخطوطة، ووقع في العديد من الأغلاط، ويذكر الدكتور حاجيات بهذا الشأن:"ثم إن ألفرد بل قام بتحقيقه هذا في بداية اهتمامه بالدراسات الإسلامية، أي في حين لم يبلغ فيه مستوى كافيا للإحاطة بأسرار اللغة العربية وإجادتها، ولا شك أن مثل هذا العمل يتطلب معرفة عميقة للغة، ولبلاغة العرب، ولم تتوفر آنذاك عند ألفرد بل. ورغم ما امتاز به من ذكاء وجدّ وسعة اطلاع، فإن نشرته جاءت سقيمة، لا تخلوكل صحيفة منها من أخطاء لغوية أوكتابية أونحوية. وقد اتخذ مخطوط القاضي شعيب...أساسا لتحقيقه، مع أن هذه النسخة أكثر أغلاطا من مخطوط باريس...ومن مخطوط الباشعدل محمد بن أحمد الحصار...وكان في الإمكان تصحيح الكثير من الأخطاء بالاعتماد على هاتين النسختين الأخيرتين[9]

إن المجلد الثاني من كتاب بغية الرواد الذي حققه ألفرد بل، ونتوفر عل نسخة منه، يقع في 415 صفحة، وهويتضمن القسم الثالث من الكتاب والذي يحمل عنوان: فيما حازه أمير المسلمين مولانا أبوحمومن الشرف الشاهق الأطواد، وينقسم إلى ثلاثة أبواب، الباب الأول في ذكر سجاياه الكريمة وسيره الحميدة، الباب الثاني في أوليته ومصير الملك إليه، الباب الثالث

فيما التزمه المؤلف من تفصيل ما اشتملت عليه دولة أبي حمومن حرب وسلم وتفريق ولم وحكمة وحكم، وهوموزع على السنين يبدأ بسنة إحدى وستين وسبعمائة، وينتهي بسنة سبع وسبعين وسبعمائة، بالإضافة إلى ملحقين عبارة عن نصوص للكتاب من خارج المخطوطات الموظفة في التحقيق[01].

بالإضافة إلى فهرس المحتويات الذي وضعه المحقق، والذي أسماه فهرست الأبواب، وضع كذلك فهرسا للأخطاء الواردة في الكتاب بعنوان فهرست تصويب الخطأ الواقع في هذا الكتاب، وجداول بأسماء الأشخاص والقبائل المذكورين في الكتاب مرتبين ترتيبا هجائيا ألفبائيا، وأسماء الأمكنة[11]. وهوما ينم عن مجهود إضافي بذله المحقق لتسهيل استغلال الكتاب من قبل الباحثين.

أما الجزء الأول، فينقسم إلى قسمين:

القسم الأول:الباب الأول: ويتعرض فيه إلى أصل قبيلة بني عبد الواد، وماضيها قبل تأسيسها للدولة الزيانية العبد الوادية، ويصف البلاد التابعة للزيانيين، ويصف عاصمتهم تلمسان، ويعرف بالعلماء والصلحاء التلمسانيين أوممن زاروا تلمسان منذ القرن الخامس الهجري، كما يأتي على ذكر الدول التي حكمت تلمسان قبل الزيانيين. أما الباب الثاني فتطرق فيه إلى الدور الذي قامت به قبيلة بني عبد الواد في تاريخ المغرب الإسلامي قبل تأسيس الدولة الزيانية، وذلك بعدما استعرض آراء النسابة والمؤرخين العرب حول أصل البربر، وحاول نسب قبيلة بني عبد الواد للأدارسة أما الباب الثالث فتعرض فيه إلى استقرار بني عبد الواد بناحية تلمسان، ثم استيلائهم على المدينة ونواحيها في أواخر العهد الموحدي، وانتقال الرئاسة إلى يغمراسن بن زيان، وتأسيسه لإمارة بني عبد الواد.

القسم الثاني: وينقسم بدوره إلى ثلاثة أبواب: الباب الأول، تعرض فيه إلى عهد يغمراسن، وابنه أبي سعيد، ثم ثلاثة أمراء من أبناء أبي سعيد، وينتهي بخبر تغلب أبي الحسن المريني على إمارة تلمسان. أما الباب الثاني فيذكر فيه ظروف إحياء الدولة الزيانية على يد الأخوين أبي سعيد الثاني وأبي ثابت. وفي الباب الثالث يتعرض إلى فترة حكم الأميرين أبي سعيد الثاني وأبي ثابت. وهوما يشكل نهاية للجزء الأول، الذي بدأه بمقدمة ذكر فيها دواعي تأليف هذا الكتاب، والغرض منه، حيث يقول أنه جاء بطلب من الأمير الزياني أبي حموالثاني، لتخليد مآثر وأمجاد ملوك الدولة العبد الوادية[21].

لقد كسب ألفرد بل قصب السبق بتحقيقه لهذا الكتاب المهم في تاريخ المغرب الأوسط، ومكّن جمهور الباحثين من الإطلاع عليه، وبالتالي الانتباه إلى أهميته، ورغم ما شاب هذا التحقيق من نقائص إلا أنها لا تقلل من الجهد الكبير الذي بذله في إخراج النص من صفته المخطوطة إلى صفته المطبوعة، وما رافق ذلك من مشقة وجهد، ولقد عاد إلى هذا الكتاب بالدراسة والتحقيق باحثان جزائريان هما الدكتور عبد الحميد حاجيات بتحقيقه للجزء الأول، والأستاذ بوزيان الدراجي بتحقيقه للجزء الثاني، مما جعل إمكانية الاستفادة منه ممكنة على ضوء نفاد نسخ طبعة 1910، بالإضافة إلى استدراك الباحثين الأخطاء التي وقع فيها المحقق الأول.

إن المستشرقين بذلوا جهدا معتبرا في تحقيق التراث العربي، وهذا ما لا يمكن إغفاله أوتجاهله، ولكننا نحن في حاجة اليوم إلى إعادة تحقيق هذا التراث، وذلك بسبب نفاد التحقيقات الأولى من المكتبات والأسواق، بالإضافة إلى ضرورة استدراك الأخطاء التي وقع فيها أولئك المستشرقين ووجوب تصحيحها. وإن الأمل معقود على ما تبذله مخابر البحث المهتمة بهذا الحقل المهم من الدراسات التاريخية، وعلى الباحثين الذين يتطلعون إلى خدمة التراث المخطوط.

الهوامش:

1- دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، 1969.

2-« Note sur une inscription de 1846 figurant sur le pont de négrier (Tlemcen) », Revue Africaine, V 55, Année 1911, pp160-170.

3-« L'Islam Mystique: A- les confréries.

B- les saints ». Revue Africaine 68, Année 1927, pp329-372.

4-« Documents Récents sur L'histoire des Almohades », Revue Africaine, v 71, Année 1930, pp113-128.

5-« Une épitaphe Tlemcènienne du xv siècle de j.c par Alfred bel (avec une illustration hors texte) », Revue Africaine, V 76, Année 1935, pp239-255.

6- « Notes et Documents: à propos de « modd an-nabi » magrébins », Revue Africaine V 89, Année 1945, pp120-125.

7- ابن خلدون يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء الأول، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائر، 1980، ص 63-64.

8- يمكن مراجعة أرقامها وأماكن وجودها وخصائصها في نفس المرجع، ص 65-67.

9- المرجع نفسه، ص 68.

01- ابن خلدون يحيى، كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، المجلد الثاني تحقيق ألفرد بل، مطبعة فونطانة، الجزائـــر، 1910، ص ص 333-378.

11- المصدر نفسه، ص ص 379-413.

21- ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، المصدر السابق، طبعة 1980، ص 53-54.